نزعة (العراقى) العقلانية التنويرية ومستقبل العالم العربى

النزعة العقلية عند عاطف (العراقى) ودعائمها

إذا حاولنا أن نبين للقارئ معالم الحياة الفكرية فى عصرنا الحاضر وما تتسم به من أبعاد تنويرية تسعى إلى التغير والتجديد والإبداع فلا شك أن (العراقى) يمثل علامة مضيئة فى تاريخ هذه الحياة الثقافية، بل إن دوره الإيجابى الفعال فى حركة التنوير العقلى - والتى استمر يجاهد من أجل نشرها وتدعيمها ما يقرب من نصف قرن من الزمان- إنما يعد دورا خلاقا مبدعا فى الحركة الثقافية لعالمنا العربى من مشرقه إلى مغربه، فإذا ما تحدثنا عن منهجه النقدى فإننا لا يمكن أن نتغافل عن الأثر الذى تركه فى تاريخ الحياة الفكرية والذى سار على منواله الكثيرون من طلاب العلم والمعرفة وكم خاض العديد من المعارك الفكرية دفاعا عن الحق، ودفاعا عن الحرية، ودفاعا عن حق العقل فى ممارسة دوره لأن العقل أشرف ما فى الإنسان وقد كرمه الله وميز به الإنسان دون سائر الموجودات ولذلك كانت صيحته دائما «إننا إذا قمنا بالابتعاد عن العقل وارتضينا لأنفسنا طريق اللامعقول فمعنى هذا أننا قد ارتضينا طريق الهوان وطريق التخبط والضياع».

ولكـــن ماذا يعنى مفهوم العقل عند عاطـــف (العراقى)؟ وماذا يقصد بالمنهج العقلى؟ هل اكتفى كســائر المفكريـــن بالتأصيل النظرى، أم إنه سعى إلى محاولة تطبيقه فى مختلف جوانب الحياة؟؟

إنه يذكر تعاريف متعددة لمفهوم العقل سواء عند فلاسفة اليونان أم عند فلاسفة الإســلام وقد ضمنها أكثر مؤلفاته، لكنه يبسط تلك المفاهيم بقوله «يقال عن شيء إنه عقلى إذا استند إلى العقل وعلى ذلك تسمى النتيجة التى ينتهى إليها عقلية، وكل شيء له وجود فوجوده بعلة معقولة ومادام الأمر كذلك فمن حقه أن يكون معقولا إن لم يكن معقولا بالفعل، والمعرفة العقلية تكون عن طريق العقل الذى له القدرة على اكتساب العلم».

ويعرف المنهج العقلى بقوله «هو ذلك المنهج الذى يستند إلى مجموعة مـــن المبادئ الأولية الواضحة يترتـــب عليها نتائج ضرورية» ولذلك فقد كان إيمانـــه بالعقل لا حدود له إذ يقـــول «أنا مؤمن بالعقل كقوة خلاقة مبدعة فى ميدان الفكر الفلسفى العربى.. رافض لكل محاولة من شأنها إدخال عناصر داخل مجال الفلســـفة العربيـــة لا تتوفر فيها خصائص الفكر الفلســـفى» ومن المعلوم أن التأمل العقلى والشك المنهجى وأسلوب النقد البناء والاعتماد على الخطاب البرهانى والبعد عن الخطاب الجدلى والأســـلوب الخطابى بل والتأكيد على منهـــج التأويل العقلى للنصوص القرآنية واستخدام القياس البرهانى هى أهم الخصائص التى دعا إليها عاطف (العراقى) وصدر بها مقدمات مؤلفاته وكتبه التذكارية.

فهـو إذن صاحـب منهج عقلانـى ورؤية نقدية تسـعى إلى التغيير والتجديـد، وقد ظهر هذا المنهج بوضوح فـى مؤلفاته العديدة وخاصة فى بدايات مرحلة التأليف الفلسـفى حين اتخذ من فيلسـوف المغرب العربـى «أبو الوليد بن رشـد» مثلا أعلى لهذا المنهج الذى اسـتخلصه بعناية فائقه من شـروحاته وتلاخيصه لكتب أرسـطو بل استمده أيضا مـن تلك الأحكام الفقهية القائمة على القياس والبرهان لابن رشـد فى مجـال الفقه والتشـريع ولم يقف عند باب الاعتقاد فحسـب بل انطلق يطبق منهجه فى كل القضايا التى عالجها سياسـية كانت أم اجتماعية أم ثقافيـة وفى تناوله أيضا لكل المشـكلات التى تصدى لها بشـجاعة وإصرار منقطع النظير مؤكدا «أنه لا سـبيل لبناء فلسـفة عربية أصيلة ومعاصـره، ولا أمل فـى أن نصبح دولة متقدمة لهـا دورها الفعال فى بناء صرح الحضارة العالمية إلا من خلال هذا المنهج، وهذه الرؤية» وأن المطلع على معظم مقدمات مؤلفاته يكتشف بسهولة قوة تمسكه بجدوى هذا المنهج وعظم رسـالته فى تحقيق النهضة الشاملة يقول مؤكدا ذلك «إن منهجـى الذى أؤمن به وأدافع عنه فى مجال الفلسـفة العربية هو المنهج العقلى التجريدى» ويستطرد قائلا «إننا لن نستطيع التقدم خطوة واحدة فى سـبيل إرسـاء دعائم فلسـفتنا العربية إذا انحرفنا عن نهج العقـل وذلك لأن هذا النهـج كفيل بالإبانة عن مواطـن القوة والضعف ويدهـى أن تحقيق ذلك مرهون بالعقل وما يتيحه لصاحبه من إمكانات

النقــد وعدم الركــون إلى التقليد» وإذا كنا نفضل البرهــان على ما عداه فإن ســبب ذلك أننــا فى دعوتنا إلى منهج عقلــى لم نرتض طرقا أخرى تعــد فى نظرنا غير يقينية كالطريق الجــدلى الكلامى والطريق الصوفى القلبى أى لم نرتض عن العقل بديلا، وإذا قلنا إن العقل أشــرف ما فى الإنســان فقد قلنا إلى حــد كبير بالبرهان أعلى أنواع الأقيســة المنطقية معــبرا عن أسمى صور اليقــين معبرا عن ثورة العقــل، لم تكن نظرتــه إلى العقــل نظره مجــردة أى إنه لم ينظر إلى العقل فــى حد ذاته كعقل نظرى، بل إنه كان حريصا باســتمرار على الربط بين العقل والمجتمع أى بــين النظرة العقلية وفاعلية هذا العقــل ودوره فى الإصلاح الفكرى والاجتماعى والسياسى فإذا ما تعمقنا فيما كتبه سواء فى مقدمات كتبه أم فــى مقالاته وتحقيقاته التراثية لوجدنا كيــف تغلغلت هذه الرؤية فى ثنايا موضوعاته وبين ســطور عباراتــه وجمله فلم يكن يكل أو يمل من تكرارها عسى أن تنتبه العقول الغافلة والنفوس المنغمسة فى أعماق الماضى الســحيق بكل ترهاته ووقفاتــه اللاعقلانية يؤكد ذلك بقوله «إن العقل يمثل التقدم ويمثل القوة الخلاقة المبدعة» وهل يمكن الحديث عن التنوير سواء فى أوروبا أم فى عالمنا العربى المعاصر دون القول بالركيزة الكبرى والأساس القوى البنيان لهذا التنوير وهو العقل والعقل وحده؟

ولقد سألته فى أحد لقاءاتنا الثقافية: نحن نتحدث كثيرا عن أهمية التوجه العقلى ونكرر باســتمرار فى البرامــج الحوارية والثقافية دور

العقــل فى بعــث حركة التقدم والتغيير لكننا لا نجد أثرا ملموســا فى حياتنــا الواقعية لهذا الجهد حتى ليصاب الإنســان فى بعض الأوقات باليأس والإحباط من عدم القدرة على التغيير والتجديد فما هو الأسلوب الــذى يمكننا من تثبيت الاتجاه العقلانــى وكيف يمكننا مواجهة تلك التيارات الرجعية والاتجاهات الأصولية؟

أجــاب (العراقى) فى نبرات تدل على الأســى: فى مجتمع يســود فيــه- ما يقرب مــن ٤٠٪ منه فى - الجهــل والتخلف يمكن أن يلعب التعليــم العام دورا أساســيا وذلك عن طريق عرض الأفــكار العقلانية بطريقة مبسطة فى الكتب والمناهج الدراسية المقررة فى مراحل التعليم الأولى مع التركيز على المنهج العلمى القائم على إدراك العلاقة السببية بين الأشــياء، ولذلك لابد من تغيير وتعديل مناهــج التعليم التقليدية القائمة على الحفظ والتلقين إلى مناهج التعلم والفهم والتحليل والتركيب مع نشر مناخ الحرية فى التعبير عن الآراء دون قيود أو عقبات خاصة أن وســائل المعرفة التكنولوجية الحديثة قد أتاحت للجميع حرية المعرفة والاطلاع على أحدث ما توصل إليه العلم والتقدم العلمى.

لا شك أن ما ذكرته سابقا لو تم تنفيذه فسوف يصبح جزءا من التكوين الفكرى للجيل الجديد ثم عقب وفى نبرات صوته حسرة ويأس... ولكن ماذا نجد إلى الآن؟ إن الأفكار العقلانية تحارب بشدة وتنتشر بدلا منها أفكارا تســاعد على تغييب العقل ونشر الخرافة... ومثل هذا يقال أيضا

عـن أجهزة الإعلام فبـدلا من أن تدعم الاتجاه العقلانى وتنشـر الفكر التنويرى وتهتم بالتقدم العلمى والاتجاهات العلمية وتلقى الضوء على نماذجها البشرية المشرفة فإنها للأسف الشديد تسير فى أغلب الأحيان فـى الاتجاه المضـاد وتتملق المشـاعر اللاعقلانية لجمهور المسـتمعين والمشـاهدين من البسـطاء. إن واجبنا أن ننبه الأذهان إلى الأخطار التى تهدد مستقبلنا على يد أنصار التطرف الداعين إلى الغيبيات والانغماس فى الخرافات هذا فى الوقت الذى نجد فيه العالم يتقدم بسـرعة مذهلة مما أدى إلى اتساع الفجوة الثقافية والحضارية بيننا وبينهم.

المنهج النقدى ووسائل التجديد

وفيه يؤكد أن النقد يعد من أخص خصائص الفلسـفة والتفلسف وأن الإنسان فى حقيقته يعد حيوانا ناقدا ولا شك أن مفكرنا العظيم قد تمتع بحس نقدى دقيق حاد فى كثير من الأحيان كما تميز بذهن ثاقب متفتح سـاعده كثيرا فى محاولاته للإصلاح والتجديد فى شـتى المجالات بل إنه أدرك أن نهوض أمته وتقدمها لن يكون إلا من خلال كشف عيوبها ومواطن الضعف فيها ولإيمانه الشديد بالنقد كوسيلة للإصلاح والتجديد نـراه يربط بينه وبين العقل ويؤكـد أن النقد ملكة لا تصدر إلا عن عقل متميز ينبه صاحبه دائما إلى الصواب.

لم تخل مقدمة من مقدمات كتبه ومؤلفاته من الإشارة إلى أهمية النقد ودوره فـى الإصلاح والتجديد، واعتـبر (العراقى) النقد ظاهرة صحية

وضرورية للفكر الجاد الفكر البناء الذى يريد به أصحابه أن يتخطى حدود الزمان والمكان فالنقد يمثل الحركة لا السكون يعبر عن الثقة والاعتزاز بالنفس بمعنى ألا يكون الشخص متابعا للآخرين مقلدا لهم. «إذن فالنقد يعبر عن التجديد لا التقليد، يعبر عن الثورة لا الجمود وعلى ذلك فإن الفلاسفة الذين يتميزون بالحس النقدى والمنهج الشكى إنما يحتلون مكانة كبيرة فى تاريخ الفلسفة قديما وحديثا».

وجد (العراقى) فى ابن رشد كفيلسوف عربى مستنير جذور نزعته النقدية العقلانية فاهتم به اهتماما لا حدود له وكتب عنه مئات الصفحات واتخذه مثلا أعلى لمنهجه العقلانى التنويرى حتى إن عنوان أحد مؤلفاته كان يحمل هذا المعنى «أربعون عاما من ذكرياتى مع فكره التنويرى» «الفيلسوف ابن رشد ومستقبل الثقافة العربية» ويؤكد إننا إذا أردنا أن نتقدم خطوة أو خطوات نحو تقديم تصور لقضية الأصالة والمعاصرة إذا أردنا البحث عن جانب من الجوانب المضيئة فى تراثنا الفلسفى فمن الواجب علينا معشر المفكرين أن نهتم دوما بفلسفة ابن رشد سواء فى جانبها النقدى أو جانبها الإيجابى وأن نعى الدروس التى يمكن أن نستخلصها من مؤلفات هذا الفيلسوف وشروحاته. ولم يكن ابن رشد ملتزما بقبول العديد من الآراء والاتجاهات التى رأى من جانبه أنها بعيدة عن العقل والمعقول فقد نقد أراء الصوفية وأراء الأشاعرة ووجهات نظر المقلدين، وكان فى نقده معبرا عن كل ما هو عقلانى تنويرى. كان يؤمن بأن البرهان العقلى يعد أسمى صور

الأدلــة ومن هنا نجده يتجه بكل قوته نحــو نقد الأدلة الخطابية التى يلجــأ إليها عامة الناس، و التى تأتى إليهم تقليدا وترديدا وليس إقناعا واستدلالا واستنباطا أو برهانا.

انحــاز (العراقى) فى مؤلفاته لأصحاب العقليـــة النقدية فى تاريخ الفكر الفلســفى فأعجب بأرســطو لنقده آراء أســتاذه أفلاطون وفلاسفة المدرســة الأيونية، كما أبرز مكانه الفيلســوف الألمانى (كانت kant) ومنهجــه النقدى الذى غير وجه الحيــاة الفكرية فى أوروبا فى العصر الحديث ولم ينحز للفكر الغربى على حســاب العربى الإسلامى ولكنه وبموضوعية وحيادية يشــير إلى المكانة التــى احتلها المعتزلة بروحهم النقديــة وكيف أنهم علــى رغم خلافه مع منهجهــم الجدلى قد رفعوا مرتبة الشــك فوق مرتبة الإيمان عــن طريق التقليد، كما يؤكد حرصهم على التأويل والبعد عن الفهم الظاهرى للنصوص مما يعبر عن اتجاههم النقــدى العقلانى التنويرى فلا تنوير بدون عقــل كما يؤكد (العراقى) ولا تنويــر بدون حس نقدى إنه يشــير إلى أقطابهــم أمثال أبى الهذيل العلاف وإبراهيم النظام والجاحظ والقاضى عبد الجبار الهمدانى وكيف أنهم كانوا من الشــجاعة بحيث واجهوا خصومهم من الأشــاعرة حين نادوا بأهمية الشك وأنه يعد ضروريا وأن الإيمان الذى يسبقه الشك يعد خيرا من اليقين الذى لا أساس عليه.

ولا شــك أن هذه النظرة النقدية الشــكية عند المعتزلة كان لها أثرها الكبير فى كثير من مفكرى الإســلام كالفارابى وابن ســينا بل كان لها

أثرهـا على خصوم المعتزلة كالأشـعرى والغزالى الـذى ذهب فى كتابه المشـهور «المنقذ من الضلال» إلى القول بأن من لم يشـك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر وقع فى الحيرة والعمى».

وهكذا يعتـبر (العراقى) أن التفكير النقـدى يعد من أهم خصائص الفكر الفلسـفى ومن هنا يكون للتفكير النقدى دلالته الفلسـفية سـواء وجدناه عند أقطاب المعتزلة أم وجدناه عند أدباء وشـعراء ومفكرين من أمثال أبى العـلاء المعرى وابن الرومى والمتنبـى وأبو حيان التوحيدى والإمام محمد عبده والدكتور زكى نجيب محمود وقد حفظ لهم التاريخ مكانتهـم الأدبية والعلمية لأنهم تجاوزوا الواقـع بنقدهم لهذا الواقع مـن أجل تغييره أملا فى مسـتقبل أفضل لذلـك كان (العراقى) حريصا غايـة الحرص على تحديد ماهية النقد، وكيف يمكن التفرقة بين النقد الحقيقى والنقد الزائف - خاصة من أشـباه النقاد - الذى لا يقوم على أسـاس علمى موضوعى بل هو نقد قائم علـى الذاتية والمصالح الفردية، كما كان حريصا على التفرقة بين المقلد والمجدد ومدى ارتباط كل منهما بالنقد كأداة للتغيير والتجديد.

فى حدة وربما يأس مما ساد الحياة الثقافية من شللية وسطحية وسعى وراء المصالح الشخصية يؤكد أنه «ليس لدينا نقد ولا نقاد... هذا ما قلت به من عشـرات السـنين ولم أجد مبررا للتراجع عنه وإذا وجدنا القليل من النقاد المعاصرين من أمثال الدكتور طه حسـين وعباس العقاد وتوفيق الحكيـم والدكتور محمـد مندور وزكـى نجيب محمـود وفؤاد زكريا

ولويس عـوض وفاروق عبد القادر... فإن هـذا لا يدلنا على أن النقد فى مصر قد أصبح ظاهرة ملموسـة» حقا لقد غـاب النقد الجاد البناء والنقد الذى يعد كما قال (العراقى) علما وليس نوعا من الفهلوة والمجاملة مما كان له أثره السىء على الحياة الفكرية والثقافية المعاصرة.

يشـير (العراقـى) إلى الموقف المتعنت لبعض أشـباه النقاد من رؤيته ورؤيـة الدكتور فـؤاد زكريا للعلاقة بين الديـن والعلم وكان ذلك خلال ندوة إذاعية اشتركا فيها معا عام ١٩٧٤ وكان رأيهما المشترك هو ضرورة التمييز بين الدين من جهة والعلم من جهة أخرى وذلك رفعا من جانبهما لمكانة الدين، وقاما بالإشارة خلال الندوة إلى إبراز الأخطاء العديدة التى وجداهـا فى الخلط بين الديـن والعلم، كما قاما بنقد بعض المتسـرعين الذين يحاولون استخراج النظريات العلمية الحديثة من الآيات القرآنية وقد استندا فى رؤيتهما واستشهدا برأى طه حسين ورأى توفيق الحكيم وغيرهما من الكتاب الذين يتميزون بالدقة العلمية والموضوعية إلى جانب العمـق الإيمانى وكانت رؤيتهم متفقة مع مـا عرضاه فى هذه الندوة أى التمييـز بينهما ولكن ما حدث يؤكـد ما ذكره (عاطف العراقى) من أننا ليـس لدينا نقاد موضوعيون بل أشـباه نقاد ملأت شـهرتهم وأسماؤهم الأفـاق على رغم ضحالتهم الفكرية فقد شـنوا حملة شـعواء عليهما فى مقـالات متعددة وناصبوهما العـداء وخرجت عناوين المقـالات النارية لتؤلـب العامة والخاصة عليهما منها «أخطر من القنبلة الذرية» وأخرى بعنـوان «الذين يزرعـون الكراهية» وغيرها مما يدل على فسـاد الحياة

الثقافيـــة والافتقـــار إلى المنهجية العلمية ســـواء فى النقـــد أم الحوار أم الثقافـــة عموما، كما يدل على التعصب وعدم القـــدرة على الحوار البناء هذا ماحدث عام ١٩٧٤ وربما يكون اســـتمرار الحال على ما هو عليه بل انتـــكاس الرؤية التنويرية وتقهقر التقدم الفكـــرى والثقافى الذى جعل عاطـــف (العراقى) يؤكد فى عام ٢٠٠٠م أنـــه ليس لدينا نقد ولا نقاد بل يؤكد ذلك بقوله «أليس من مصائب الزمان وســـخرية القدر أن أكتب عن العقل وضرورة اتخاذه الدليل المرشـــد والحكم منذ ما يقرب من خمســـين عاما «النزعة العقلية فى فلســـفة ابن رشد» «المنهج النقدى فى فلسفة ابن رشـــد» ثورة العقل فى الفلسفة العربية و العقل والتنوير وثورة النقد فى عالم الأدب والفلســـفة والسياسة ثم أجد نفســـى الآن مضطرا للبحث عن المعقول بعد أن وجدت أن حياتنا الفكرية تشهد الآن تراجعا عن مكاسب المعقول وبحيث فضلت وآثرت الارتماء فى أحضان اللامعقول».

إذا كان النقد علما وملكة فى الإنسان فإنه أيضا يعد منهجا وأسلوب تفكـــير وطريقة تحليل ولهذا يقرن (العراقـــى) النقد بمنهج الفكر فإذا كان الفكر رأســـيا أى ينفذ فى صميم المذاهب وثنايا القضايا والموضوعات ليحللها وينقدها سلبا أو إيجابا ويستنبط أحكامها، ويدلل على صحتها أو فســـادها مســـتخدما الأدلـــة والبراهين حتى يســـتخلص منها نتائج محددة... ونجده يعتبر ذلك المنهج دعامة التجديد وأســـاس التغيير، أما إذا كان الفكر أفقيا يعتمد على الرواية والحكاية والســـرد فإنه يعد

فكرا تقليديا متابعـا لآراء الآخرين دون نقد أو فحص أو تمحيص وهو مـا يؤدى إلى ركود الحيـاة الفكرية والثقافية وبالتـالى ضحالة الإنتاج والإبداع فى شتى المجالات.

كان (العراقى) فى عرضه وتحليله للكثير من القضايا والمشكلات بل وفى تناوله للمذاهب والشـخصيات يتبع المنهج الرأسـى وليس الأفقى وكيـف له أن يحيـد عن ذلك وهو صاحب الرؤيـة النقدية الحادة التى صاحبت منهجه العقلى طوال سـنوات حياته، فبرغم إعجابه الشـديد بكثير من الموضوعات والشخصيات إلا إنه كان موضوعيا فى نقده وعرضه ولم يؤثـر عنه أنه جامل أو تحامل أو تعصب لأسـباب ذاتية فهو على سـبيل المثـال وعلى رغم تقديره وإعجابه بالشـيخ الإمـام محمد عبده كمفكـر ومصلح دينـى واجتماعى، إلا إنه قام بنقـده وأخذ عليه بعض المثالب والمغالطات التى وقع فيها. صحيح أن الشيخ «الإمام محمد عبده» باعتبـاره رجل دين ومجددا من الطراز الأول ظهـر منذ أكثر من مائة عـام وعبر بجرأة وحرية عن آراء وأفكار تعتبر جريئة فى زمانها مثل الإسـلام دين العلم والمدنية والذى قام (العراقى) بعرضه وتحليله وذلك ما جعله يسـتحق الإشادة به والتأكيد على أن ما تركه من مؤلفات إنما تدل على مدى ثقافة هذا الإمام وعمق رؤيته الدينية التنويرية المنفتحة حتى إنه (العراقى) يقـول «إننا الآن وأكثر من أى وقت مضى فى أمس الحاجـة إلى العديد من الأفكار والمؤلفات التى تركها لنا الشـيخ الإمام محمد عبده على رغم مرور ما يقرب من قرن من الزمان على وفاته»..

وإن دلنا ذلك على شيء فإنما يدلنا على أن الفهم المتفتح للدين وأحكامه هو الذى يقدر له البقاء أما الفهم الجامد المنغلق، والفهم الذى يقوم على تحنيط الأفكار الدينية- إن صح هذا التعبير- فإنه لا يُقدَّر له البقاء بل سيكون فى واد وتكون حياتنا الفكرية والاجتماعية فى واد آخر وذلك عندما تناول رؤية الإمام محمد عبده لمسألة العلاقة بين الدين والعلم أو الدين والعقل لم يسلم الإمام من نقد (العراقى) له بقوله «إنه يفترض منذ البداية الربط بينهما وبالتالى إنكار التمييز بينهما على أساس أن العلم من ثمار العقل، والدين من وجدانيات القلب ولا سبيل إلى الجمع بينهما». إنه «أى الإمام محمد عبده» يذكر هذه القضية ولا يكلف نفسه مناقشة القائلين بذلك القول مناقشة مستفيضة وبحيث يبين لنا ما قد نجده من جوانب إيجابية فى الفصل بين الدين من جهة والعقل أو العلم من جهة أخرى، بل نراه مكتفيا بالحديث حديثا خطابيا عن هذه لمسألة وكأنه يفترض أنه لا خلاف بينهما ويسقط من اعتباره تماما الحديث عن أوجه الضعف فى محاولات التوفيق بين الدين والفلسفة والتى قام بها أكثر فلاسفة العرب فى المشرق والمغرب وهكذا يتضح لنا أن نزعته النقدية لم تكن سوى شماع يعبر عن توجهه الإصلاحى ويحمل إلى المفكرين والمثقفين المنهج والمضمون والمعالم لأهم محاولاته الفكرية التى اجتهدها لبعث الحياة فى الأمة العربية وإيقاظ الوعى الإنسانى وتنبيه الناس إلى الأخطار المحدقة بهم.

أثـر الرؤيـة التنويريـة والفكـر المسـتنير فـى مسـتقبل العالم العربى

إذا كان مفهـوم التنويـر يحمل فـى طياته معنى الاعتـداد بالعقل لتستنير العقول وتتحرر النفوس وتتخلص من ظلمات الجهل والتخلف والخرافة بل وتتحرر من الاسـتعباد واليأس والتحيز الدينى أو الطبقى فتنطلق بإبداعاتها نحو التقدم والرقى.

وإذا كانت النزعة الإنسانية التى تسود التنوير كما يؤكد (العراقى) لا يمكن تصورها بعيدة عن العقل والمعقول وبحيث يصبح العقل هو المرشد والدليـل والحكم كالبوصلة التى يهتدى بها الإنسـان فى الصحراء فإن التنوير والضياء واليقين كما يؤكد (العراقى) لا سبيل إليه إلا عن طريق العقل وإننا فى أمس الحاجة إلى البحث فى قضية التنوير لأننا فى عصر لا يمكـن أن نتصور فيه الفكر بمعزل عن التنوير، وإذا كان المثقف كما ينبغى أن يكون هو الذى يهتـم اهتماما بالغا بكل قضايا التنوير، وإذا كان الفرد التنويـرى هو الذى تؤرقه هموم الأمة العربية بحيث تصبح حياتـه الفكرية هى القضايا المصيريـة لعالمنا العربى فلا يحيا إلا بهذه القضايا ولا يعيش إلا من أجلها، فإننا لا يمكن أن ننتظر حلولا إيجابية لكل قضايانا التى نبحث فيها سـواء كانت قضايا فكرية أم سياسـية أم اجتماعيـة إلا مـن خلال التنوير ولا يمكن أن ننتقـل من عصر الجمود والانغلاق الثقافى المحلى إلى عصر العلم والتقدم والازدهار إلا من خلال إطلاق الفكر والإبداع والانفتاح على أفكار وثقافات العالم المتحضر.

يتساءل (العراقى) هل نستطيع كأمة عربية أن يكون لنا مكان ووجود فى هذا العالم الذى اتسعت الفجوة الحضارية بيننا وبينه بصورة مقلقة؟ وهل يمكن أن نتفق على تحديد رؤية مستقبلية تنويرية تشهد بوجودنا وتؤكد مكانتنا؟

قبل أن يجيب (العراقى) عن تلك التساؤلات فإنه يشخص الواقع المرير للأمة العربية وكيف أنها تعيش حالة من فقدان الاتزان والغيبوبة الفكرية، حالة يكاد يكون الحوار منعدما فيها بينما تثار الخلافات اللفظية والشكلية هذا فى الوقت الذى نجد فيه العالم يتحرك من حولنا حركة سريعة، حركة بغير حدود، حركة تبادر فيها الدول المتقدمة إلى اتخاذ مواقف بناءة، مواقف تعبر عن نتائج عملية. إنه يدق ناقوس الخطر وينبهنا إلى خطورة الوضع نظرا لأننا نعيش فى عصر تتصارع فيه القوى المختلفة وإذا لم نبادر بتحديد هويتنا الثقافية العربية ونبادر باتخاذ مواقف إيجابية فلن يكون لنا وجود فى المستقبل، ولن تكون لنا حياة وسنصبح فى خبر كان... وسيأتى يوم علينا يتحدث فيه العالم عنا كما يتحدث عن الهنود الحمر أو كما يتحدث عن شعوب منقرضة. إننا نملك الإرادة لتخطى هذه المعوقات ونستطيع إذا خلصت النوايا أن نقضى على هذه الفجوة ونتخطاها إذا أقمنا الحوار بين أبناء الدول العربية كلها وأقمنا الحوار بين مثقفى الأمة العربية ومثقفى بلدان العالم من مشرقه إلى مغربه هذا هو التنوير الذى يقصده (العراقى) وهذا هو السبيل للنجاة.

ولا شك أن نظرته التشاؤمية فى رصد حركة الفكر والثقافة فى عصرنا الحاضـر هى التى دعته إلى تصور رؤية تنويرية مسـتقبلية لأنه رأى أن الحاضـر والماضـى القريب لا يجـد فيهما رؤية واضحة محـددة المعالم، بل رؤية ظلامية ضبابية أدت إلى العديد من التصورات الخاطئة التى تقوم علـى المبالغة والمناداة بأن الحل إنما يتمثل فى الرجوع إلى الماضى وما فيه مـن أخطاء ومغالطـات وتراث لا معقول، على رغـم أن الماضى كان يحفل برؤية تنويرية فى بعض بلـدان عالمنا العربى حتى بداية النصف الثانى من القرن العشرين وذخر بتراث عقلانى تنويرى على يد رفاعة الطهطاوى وعبد الرحمن الكواكبى فى سـوريا والشيخ محمد عبده ولطفى السيد وطه حسـين ومحمد حسين هيكل وقاسم أمين وسـلامة موسى وتوفيق الحكيم وزكى نجيب محمود ومالك بن نبى فى الجزائر وغيرهم ولكن الذى حدث فى عصرنا الحاضر كان نوعا من الردة أو التراجع عن المكاسـب التنويرية فى العديد من المجالات سـواء كانت سياسية أم فكرية أم اجتماعية نجد تراجعا فى مجال حرية الفرد واتجاها نحو نوع من الديكتاتورية الفكرية الرجعية. ويعلل (العراقى) سـبب ذلك بأن أكثـر مثقفى البلدان العربية يدورون فى حلقة مفرغة ويلجأون إلى منطق التبرير وهو منطق زائف لأنه يؤدى إلى الدفاع عن سلبيات الماضى وسلبيات الحاضر.

إن الرؤية التنويرية المستقبلية كما يراها (العراقى) تقوم على الانفتاح علـى التيارات والأفكار نأخذ منها ما نأخـذه ونرفض منها ما نرفضه. إنهـا رؤية لا ترفض الـتراث ككل لكنها تأخذ منه الأفكار البناءة التى

تفيدنا فى حياتنا المعاصرة، وتنحى الجانب الذى يعوق حركة التجديد والتحديث وما أكثر ما فيه من خرافات وتهويمات.

إن تصور نظام عربى ثقافى جديد لا يمكن أن يتحقق إلا بالتأكيد على أهمية العلم والقضاء على الخرافات التى تعوق مسيرة التقدم العلمى.

ويؤكد (العراقى) أن ما يملكه العالم العربى من طاقات بشرية واقتصادية هائلة يمكنها أن توجه توجيها سليما نحو تحقيق نظام ثقافى فى المقام الأول، فالثقافة هى الأساس وهى القادرة على تحقيق نوع من الترابط بين الشعوب العربية بعيدا عن الصراعات السياسية والمذهبية والطائفية وبحيث تبتعد عن الأفكار الرجعية المتطرفة، والفكر المنغلق.

إن تأسيس مشروع حضارى للأمة العربية ينبغى أن يكون قائما على العقل والعقل فقط وينبغى أن يكون مؤسسا على الفكر التجريدى العلمى البناء وبحيث تطرد كل فكر رجعى أو لا معقول ونستطيع أن نتصور نظاما ثقافيا عربيا جديدا إذا أخذنا من تراثنا ما يؤدى إلى نهضتنا وبحيث لا يكون معوقا لمسيرتنا الإنسانية التنويرية وهى التى يجب أن تكون سائدة فى مدارسنا وجامعاتنا ووسائل إعلامنا ومؤسساتنا الثقافية وكتابات مفكرينا.

حدد (العراقى) إذن الوسائل التنفيذية لتحقيق هذا المشروع الثقافى الحضارى والذى من خلاله - إذا تم تنفيذه تنفيذا صحيحا- فإن قيم العقل والحرية والتنوير والتسامح سوف تتحول إلى قيم حية تسود فى المجتمع وتصبح جزءا لا يتجزأ من سلوكيات الأفراد وتوجهاتهم إذ إن

الفكــر هو الذى يقود الحياة ويدفعها إلى الأمام ويعقب بقوله «إن الفكر التنويــرى هو الذى يوجه التطبيقات السياســية والعكس غير صحيح، وهــذا الاعتقاد يؤدى إلى بعث الثقة فى نفــوس المثقفين العرب، ودولة بغير فكر تنويرى هى تماما كجسد بلا دماغ وإن خلا الجسد من الدماغ فإنه سيكون أقل مرتبة من الحيوانات الضالة».

وهكذا إذا أردنا لفكرنا نوعا من التقدم فلا بد أن تكون له أيديولوجية معينة وإذا أردنــا أيديولوجية لفكرنا العربى فــإن تلك الأيديولوجية يجب أن يكون شعارها تقديس العقل، لابد أن يكون محورها السعى إلى التنويــر بكل قوة وجهد ولا بــد أن تكون قضيتها الكبرى تغيير الواقع بحثــا عن الأفضل وليس مجــرد التعبير عن الواقــع أو تبريره فلنبادر بالسعى نحو التنوير العقلانى ولنصعد ونتجه بالفكر العلمى التجديدى البنــاء ولنتجه إلى الآداب الراقية والفنون الســامية نتجه نحو التنوير بكل قوتنا الفكرية وتوجهاتنا الإنسانية وإمكانياتنا المادية.

ومصداقا لرؤيــة (العراقى) وتوجـه التنويــرى العقلى، كم نحتاج الآن وأكثر مــن أى وقت مضى وإلى مثل هذه المفاهيم والمعانى الإيجابية لتحل محل مفاهيم ســلبية تسيطر على ســلوك الأغلبية من أبناء وطننا وربما تقودنا فى تلك المرحلة المضطربة إلى الضياع والانهيار. كم تحتاج إلى استنهاض الهمم واســتحضار القيم الدافعة للعمل والجد والاجتهاد فيعــود إلينا وطننا الغــالى نتفانى فى لعمل للحفــاظ عليه ونتفاخر به بين الأمم.